

كتاب الفقير

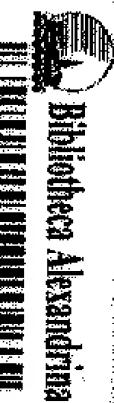
علي الططاوي

دارالمنارة

للتشریف والتدوین

جدة - المعرفة

2277619



صَاحِبُ الْفِقْهِ

صَحْرَانِ الْفَقِيرِ

علي الطنطاوي

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

الطبعة الأولى
١٤٠٨ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة

دار النشر
لنشر والتوزيع
جدة - السعودية

هاتف: ٢٢٠٣٢٣٨ - ٢٢٠٣٦٥٢ - ٦٠٣٠٦٧
ص.ب: ٢١٤٣١/١٢٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من غزل الفقهاء

قال لي شيخ من المشايخ المترمّلين، وقد سقط إليه عدد من الرسالات، فيه مقالة لي في الحب:

— مالك والحب، وأنت شيخ وأنت قاض، وليس يليق بالشيخ
والقضاة أن يتكلموا في الحب، أو يعرضوا للغزل؟! إنما يليق ذلك
بالشعراء، وقد نَزَهَ اللَّهُ نَبِيُّهُ عن الشعر، وترفع العلماء وهم ورثة الأنبياء
عنه، وصرَّح الشافعي أنه يزري بهم، ولو لا ذلك كان أشعر من ليبيد... .

فضحكت، وقلت له:

— أما قمتَ مرة في السحر، فاحسست نسيم الليل الناعش،
وسكنه الناطق... وجماله الفاتن، فشعرت بعاطفة لا عهد لك بمثلها،
ولا طاقة لك على وصفها؟

أما سمعت مرة في صفاء الليل نغمة عذبة، من مغن حاذق قد
خرجت من قلبه، فهزت منك وتر القلب، ومسنت حبة الفؤاد؟

اما خلوت مرة بنفسك تفكك في الماضي فتذكر افراحه وأتراحه،
ولإخواننا كانوا زينة الحياة فطراهم الثرى، وعهداً كان ربيع العمر فتصرّم

الربيع، فوجدت فراغاً في نفسك، فتلتفت تفتش عن هذا الماضي الذي
ذهب ولن يعود؟

أما قرأت مرة قصة من قصص الحب، أو خبراً من أخبار البطولة
فأحسست بمثل النار تمشي في أعصابك، ويمثل جناح الطير يتحقق في
صدرك؟

أما رأيت في الحياة مشاهد البؤس؟ أما أبصرت في الكون رائع
الجمال؟ فمن هو الذي يصور مشاعرك هذه؟ من الذي يصف لذاذك
النفسية والألمك، وبؤسك ونعمائك؟ لن يصورها اللغويون ولا الفقهاء
ولا المحدثون، ولا الأطباء ولا المهندسون. كل أولئك يعيشون مع
الجسد والعقل، محبوسين في معقلهما، لا يسرحون في فضاء الأحلام،
ولا يوغلون في أودية القلب، ولا يلتجون عالم النفس... فمن هم أهل
القلوب؟

إنهم الشعراء يا سيدى، وذلك هو الشعر.

إن البشر يكذبون ويسعون، ويسرون في صحراء الحياة، وقيد
نوازفهم كواكب ثلاثة، هي هدفهم وإليها المسير، ومنها الهدي وهي
السراج المنير، وهي الحقيقة والخير والجمال، وإن كوكب الجمال
ازهاها وأبهاها، إن خفي صاحباه عن بعض الناس فما يخفى على أحد،
وإن قصرت عن دركهما عيون فهو ملء كل عين، والجمال بعد أنس
الحقائق وأصل الفضائل، فلو لا جمال الحقيقة ما طلبها العلماء،
ولولا جمال الخير ما دعا إليه المصلحون. وهل ينazu في تفضيل الجمال
إنسان؟ هل في الدنيا من يؤثر الدمنة المقفرة على الجنة المزهرة؟
والعجز الشوهاء على الصبية الحسناء؟ والأسمال البالية على الحل
الغالبة؟

فكيف يكون فيها من يكره الشعر^(١)، وهو جمال القول، وفتنة الكلام؟ وهو لغة القلب فمن لم يفهمه لم يكن من ذوي القلوب. وهو صورة النفس، فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جماداً. وهو حديث الذكريات والأمال، فمن لم يذكر ماضياً، ولم يرج مستقبلاً، ولم يعرف من نفسه لله ولا ألمأ، فليس بإنسان.

* * *

ومن قال لك يا سيدني إن الله نَزَّهَ نبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشعر لأن الشعر قبيح؟ إنما نفى عنه أن يكون شاعراً كمن عرف العرب من الشعراء ورَدَّ عليهم قولهم: «إنه شاعر» لأن الشاعر يأتيه الوحي من داخل نفسه، والنبي يجيئه من السماء، وهذا الذي لم تدركه العرب، فقالوا قولتهم التي ردَّها الله عليهم! .

وأين وجدت حرمة الشعر، أو ملمنته من حيث هو كلام جميل، يصف شعوراً نبيلاً؟ إنما يقع إذا اشتمل على الباطل، كما يقع كل كلام يشتمل عليه.

ومن أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عنه، والكتب مملوءة بالجيد من أشعارهم، في الحب والغزل ووصف النساء؟

أو ما سمعت بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصغى إلى كعب وهو يهدر في قصيده التي يتغزل فيها بسعاد... ويصفها بما لو ألقى

(١) أعني الشعر الحق، الذي يجمع سمو المعنى، وموسيقى اللفظ، لا هذا الهلبان الذي نقرؤه الآن - الذي يدعونه الشعر الحديث - شعر الحديثة أي الحديث الأكبر الذي لا يتطهّر منه صاحبه إلا بالغسل.

عليك مثله لتورعٍ عن سماعه... وتصامت عنـه، وحسبت ان التقى
يمنـعكـ منهـ وذهبـ تـلـومـ عـلـيـهـ، وـتـنـصـعـ بـالـإـقـلـاعـ عـنـهـ قـاتـلـهـ...
ومـاـ سـعـادـ غـدـاءـ الـبـيـنـ إـذـ بـرـزـتـ
كـائـنـهـاـ مـنـهـلـ بـالـرـاحـ مـعـلـوـلـ
هـيـفـاءـ مـُـقـبـلـةـ عـجـزـاءـ مـُـدـبـرـةـ
لـاـ يـشـكـيـ قـصـرـ مـنـهـاـ وـلـاـ طـولـ
وـاـنـ عـمـرـ كـانـ يـتـمـلـ بـمـاـ تـكـرـهـ أـنـتـ..ـ مـنـ الشـعـرـ، وـاـنـ اـبـنـ عـبـاسـ
كـانـ يـصـغـيـ إـلـىـ إـمـامـ الـغـزـلـيـنـ عـمـرـبـنـ أـبـيـ رـبـيـعـةـ، وـيـرـوـيـ شـعـرـهـ؟ـ وـاـنـ
الـحـسـنـ الـبـصـرـيـ كـانـ يـسـتـشـهـدـ فـيـ مـجـلـسـ وـعـظـهـ، بـقـولـ الشـاعـرـ:
الـيـوـمـ عـنـدـكـ ذـلـهـاـ وـحـلـيـشـهـاـ
وـغـدـاـ لـغـيـرـكـ كـفـهـاـ وـالـمـعـصـمـ
وـاـنـ سـعـيدـ بـنـ الـمـسـيـبـ سـمـعـ مـغـنـيـاـ يـغـنـيـ:
تـضـرـعـ مـسـكـاـ بـطـنـ نـعـمـانـ اـنـ مـشـتـ
بـهـ زـيـنـبـ فـيـ نـسـوـةـ خـفـرـاتـ
فـضـرـبـ بـرـجـلـهـ وـقـالـ:ـ هـذـاـ وـالـلـهـ مـاـ يـلـذـ اـسـتـمـاعـهـ،ـ ثـمـ قـالـ:
وـلـيـسـ كـأـخـرـىـ أـوـسـعـ جـبـ درـعـهـاـ
وـأـبـدـتـ بـنـانـ الـكـفـ لـلـجـمـرـاتـ
وـعـالـتـ فـتـاتـ الـمـسـكـ وـخـفـاـ مـُـرـجـلاـ
عـلـىـ مـشـلـ بـدـرـ لـاحـ فـيـ الـظـلـمـاتـ
وـقـامـتـ تـرـاءـيـ يـوـمـ جـمـعـ فـأـفـتـتـ
بـرـؤـيـتـهـاـ مـنـ رـاحـ مـنـ عـرـفـاتـ
ذـكـانـواـ يـرـوـنـ هـذـاـ الشـعـرـ لـسـعـيدـ بـنـ الـمـسـيـبــاـ.

* * *

وما لي أدور وأسوق لك الأخبار، وعندنا شعراء كان شعرهم أرق
من النسيم إذا اسرى، وأصفى من شعاع القمر، وأعذب من ماء
الوصال، وهم كانوا أئمة الدين وأعلام الهدى.

هذا عروة بن أذينة الفقيه المحدث شيخ الإمام مالك يقول:
إن التي زعمت فرؤادك ملها
خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فيك الذي زعمت بها وكلاكما
يبدي لصاحبها الصباية كلها
ويهبت بين جوانحها حبُّ لها
لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها
يوماً وقد ضحيت إذن لأظلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة
شفع الفرؤاد إلى الضمير فسلها
بپباء باكرها النعيم فصاغها
بلباقة فادها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبها
ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنى فقال، لعلها معذورة
من أجل رقبتها، فقلت: لعلها:
هذه الأبيات التي بلغ من إعجاب الناس بها أن أبا السائب
المخزومي لما سمعها حلف أنه لا يأكل بها طعاماً إلى الليل!

وهو القائل، وهذا من أروع الشعر وأحلاه، وهذا شعر شاعر لم ينطق بالشعر تقليداً، وإنما قال عن شعور، ونطق عن حب، فما يخفى
كلام المحبين:

قالت (وابشتها وجدي فبحث به):

قد كنت عندي تحب الستر، فاستر
الست تبصر من حولي؟ فقلت لها:
غضي هواك وما ألقى على بصرى
هذا الشاعر الفقيه الذي أرقد الحب في قلبه ناراً لا يطفئها
إلا الوصول:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي
عمسدت نحو سقام الماء أبترد
هبني بسروت ببرد الماء ظاهره
فمن لحر على الأحشاء يتقد؟

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أحد فقهاء المدينة
السبعة الذين انتهى إليهم العلم، وكان عمر بن عبد العزيز يقول في
خلافته: لمجلس من عبيد الله لو كان حيأً، أحب إلى من الدنيا وما فيها.
وإنني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بالف دينار من بيت المال، فقالوا:
يا أمير المؤمنين، تقول هذا مع شدة تحريرك وشدة تحفظك؟ قال: أين
يذهب بكم؟ والله إنني لاعود برأيه ونصيحته ومشورته على بيت المال
بألف وألف. وكان الزهري يقول: سمعت من العلم شيئاً كثيراً، فظننت
أني اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كان لي في يدي شيء.

وهو مع ذلك الشاعر الغزل الذي يقول:

شققت القلب ثم ذررت فيه
 هواك فليم فالتم الفُطُور
 تغلغل حب عشمة في فؤادي
 فباديه مع الخافي يسبر
 تغلغل حيث لم يبلغ شراب
 ولا حزن ولم يبلغ سرور
 أسمعت بأعمق من هذا الحب وأعلق منه بالقلب؟ ولم يكن
 يخفي ما في قلبه، بل كان إذا لقيه ابن المسب فسأله: أنت الفقيه
 الشاعر؟ يقول: «لا بد للمصلور من أن ينفث» فلا ينكر عليه ابن
 المسب. وهو القائل:

كتمت الهوى حتى أصرّ بك الكتم
 ولامك أقوام ولو مهم ظلم
 ونمّ عليك الكاشحون وقبفهم
 عليك الهوى قد نم لونفع النم
 وزادك إغراء بها طول بخلها
 عليك وأبلى لحم أعظمك الهم
 فأصبحت كالنهمي إذ مات حسرة
 على إثر هند أو كمن سقي السم^(١)
 إلا من لنفس لا تموت فينقضى
 شفاهما ولا تحيى حياة لها طعم

(١) قال البكري في اللالي، هذا من القلوب كخرق الثوب المسمار وترجمة النهمي
 هذا في الأغاني جزء (١٩).

تجنبت إتيان الحبيب تائماً
 إلا إن هجران الحبيب^(١) هو الاثم
 فلقد هجرها إن كنت تزعم أنه
 رشاد إلا يا ريمًا كذب الرزعم
 إلا إن هذا هو الشعر.

واسمع يا سيدني أنشدك ما يحضرني من غزل الفقهاء، لا أستقصي
 ولا أعمد إلى الترتيب، وإنما أروي لك ما يجيئني، وما يدنو مني
 مصدره.

هذا أبو السعادات أسعد بن يحيى السنجاري الفقيه الشافعى
 المتوفى سنة ٦٦٢هـ فاسمع من شعره ما ترقص منه القلوب، وتطرى
 الألباب: حلاوة الفاظ، وبراعة معنى، وحسن أسلوب، قال من قصيدة
 له:

وهواك ما خطر السلو بباله
 ولانت أعلم في الغرام بحاله
 ومتى وشى واش إليك بآنه
 سال هواك فذاك من عذاله
 وليس للكلف المعنئ شاهد
 من حاله يغنىك عن تسائله
 جددت ثوب سقامة، وهتكت
 ستر غرامه، وصرمت حبل وصاله
 أفرزه سبقة له أم خلة
 مألهفة من تيهه ودلاته

(١) إذا كان هذا الحبيب مما ربط العقد، أو أباحه ملك اليمين.

أو ما سمعت شعر الشيخ الشهرازوري الصوفي هاك منه قوله:

فعاودت قلبي أسائل الصبر رقة

عليها فلا قلبي وجلت ولا صبري

وغابت شموس الوصول عني وأظلمت

مسالكه حتى تحيرت في أمري

وهاك قول ظهير الدين الأهرازي الوزير الفقيه، تلميذ أبي أسحق

الشيرازي:

ولاني لأبدى في هواك تجلدا

وفي القلب مني لوعة وغليل

فلا تحسين أني سلوت فربما

ترى صحة بالمرء وهو عليل

وقول أبي القاسم القشيري الإمام الصوفي العلم:

لو كنت ساعة بينما ما يبتا

ورأيت كيف تكرر التوديعا

لعلمت أن من الدموع محدثا

وعلمت أن من الحديث دموعا

والبيت الثاني من مرقضات الشعر.

وكان مع ذلك علامة في الفقه والتفسير والحديث ومن فقهاء

الشافعية الكبار، وهو صاحب الرسالة التي يعتد بها الصوفية ككتاب سيبويه

عند النحويين، ولا ينصرف الإطلاق إلا لها، ومن شعره:

ومن كان في طول الهوى ذاق لله

فلاني من ليلى لها غير ذاتق

وأكثر شيء نلتئه من وصالها
أمساني لم تصدق كخطفة بارق

ومن شعر القاضي عبدالوهاب المالكي الفقيه المشهور المتوفى
سنة ٤٢٢ والمدفون في قرافة مصر، وصاحب الخبر المستفيض لما خرج
من بغداد وخرج أهلها لوداعه وهم يبكون ويعولون وهو يقول: والله
يا أهل بغداد، لو وجدت عندكم رغيفاً كل يوم ما فارقتم. ويقول:

سلام على بغداد في كل موطن
وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها
ولاني بشطي جانبها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها
ولم تكن الأرزاق فيها تساعد
وكانت كخل كنت أهوى دسوه
وأخلقه تناي به وتخالف

ويقول فيها:
بغداد دار لأهل المال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها
كأنني مصحف في بيت زنديق

وهو معنى جيد وتشبيه عجيب.

وهو القائل:

متى يصل العطاش إلى ارتواء
إذا استفت البحار من الركابا
ومن يشنى الأصاغر عن مراد
وقد جلس الأكابر في الزوابا
وإن ترفع الوضعاء يوماً
على الرفيعاء من إحدى الرزابا
إذا استوت الأسافل والأعالي
فقد طابت منادمة المنابا
ومن غزله الذي يتغزل فيه بلغة الفقه والقضاء، فيأتي فيه بالمرقص
المطرب قوله:

ونائمة قبئاتها فتنبأبت
وقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني (فديتك) غاصب
وما حكموا في غاصب بسوى الرد
خذلها وكفي عن أثيم ظلامة
وإن أنت لم ترضي فالفنا على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه
على كبد الجاني أذى من الشهد
فباتت يميني وهي هميان خصرها
وباتت يساري وهي واسطة العقد
فقالت ألم تخبر بأنك زاهد؟
فقلت: بلى ما زلت أزهد في الزهد

وهك القاضي الجرجاني مؤلف (الوساطة) علي بن عبد العزيز
الفقيه الشافعي، الذي ذكره الشيرازي في طبقات الفقهاء صاحب الأبيات
المُعلمَة المشهورة:

يقولون: لي فيك انقباض، وإنما
رأوا رجلاً عن موقف السُّلُل أحجموا
أرى الناس من دانهم هان عندهم
ومن أكرمه عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإنني إذا فاتني الأمر لم أبُت
أقلب طرفي إثره متندما
ولكنه إن جاء عفواً قبلته
وإن مال لم أتبعه لولا وريما
وأقْبض خطوي عن أمور كثيرة
إذا لم أللها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً
وأن أتلقى بالسُّمْدِيْح ملتمسا
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظاما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماء حتى تجهما

الشقي به غرساً وأجنبه ذلة؟
إذن فاتساع الجهل قد كان أحزما
ويا ليت كل عالم ينقش هذه الأبيات في صدر مجلسه، وعلى
صفحة قلبه، و يجعلها دستوره في حياته، وإمامه في خلائقه!

والأبيات الأخرى:

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الغنى
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال شيئاً حرما
علي الغنى: نفسي الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه
مواقف خير من وقوفي بها العسر
وله في هذا المعنى الشعر الكثير الجيد، أما غزله فسهل حلو ومنه
قوله:

ما لي وما لك يا فراق
أبداً رحيل وانطلاق
يا نفس موتى بعدهم
فكذا يكون الاشتياق

وقوله:
قد بسح الحب بمشتاقك
فأؤلئك أحسن أخلاقك
لا تجفه وارع له حقه
فإنما آخر عشاقك

وهكذا القاضي سوار (الأصغر) بن عبد الله من أهل القرن الثالث
الذي يقول:

سلبت عظامي لحمها فتركتها
عواري في أجلادها تكسر
وأنخلت منها مخها فكأنها
أنابيب في أجوفها الريح تصرف
إذا سمعت باسم الفراق ترعدت
مفاصلها من هول ماتحذر
خذلي بيدي ثم اكشفي الشوب فانظري
بلى جسدي لكنني أنسسترا
وليس الذي يجري من العين ماءها
ولسكنها روح تذوب فتقطر

وهكذا قاضي القضاة ابن خلكان المشهور، وكان يعشق ابن الملك
المسعود بن المظفر، وكان قد تيمّه حبه، قال القاضي التبريزي: كتبت
عنه في العادلية (دار المجمع العلمي اليوم) في بعض الليالي،
فلما انصرف الناس من عنده قال لي: نم أنت هنا. وألقى على فروة،
وقام يدور حول البركة، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبحنا فتوضانا
وصلينا، والبيتان هما:

أنا والله هالك
أيس من سلامتي
أو أرى القامة التي
قد أقامت قيامتني

ولما فشا أمره، منع الملك ابنه من الركوب، فاشتد ذلك على ابن
خلكان، فكان مما قال:

إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً
ورأيتم هجري وفرط تجنبى
لا تمنعوا عيني القرىحة أن ترى
يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي
القاء من كمد إذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة
لولاك لم يك حملها من مذهبى
ومن البلاية والرزية أنسى
أقضى ولا تدري الذي قد حل بي⁽¹⁾
قماً بوجهك وهو يدر طالع
ويليل طرتك التي كالغيبة
لو لم أكن في رتبة أرعن لها
العهد القديم صيانة للمنصب
لها تكست سترى في هواك ولذ لي
خلع العذار ولو ألح مؤذبى
لكن خشيت بأن يقول عواذلي

قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي

(1) بل البلاية والله أن يكون قاضياً ويعشق الغلمان، هذا مع الثقة بدينه، وأنه
لا يطلب حراماً ولا يأبه مختاراً - غفر له الله.

فارحم فديتك حرقة قد قاربت
كشف النقانع بحق ذيئاك النبي
لا تفصحن بحبك الصبُّ الذي
جرعته في الحب أكدر مشرب
وله فيه شعر كثير جداً.

ومن شعر محمد بن داود الظاهري، مؤلف كتاب (الزهرة) في
الحب، وكان فقيهاً على مذهب أبيه داود وكان شاعراً:

أنزه في روض المحسن مقلتي
وامنع نفسي أن تنال محrama
وأحمد من ثقل الهوى ما لسو أنه
يصب على الصخر الأصم تهلكما

ومن شعر أبي الفضل الحصيفي^(١) الفقيه الشافعي:
أشكوا إلى الله من نارين: واحدة
في وجتيه وأخرى منه في كبدي

ومن سقامين: سقم قد أحل دمي
من الجفون وسقم حل في جسدي

ومن نمومين: دمعي حين أذكره
يلديع سري وواش منه بالرصد

(١) نسبة إلى حصن كيفا في العراق، وأظنه هو المعروف اليوم بتل كيف.

ومن ضعيفين: صبّري حين أبصره
ووده وسراه الناس طوع يلدي

* * *

ولو ابتهجت الاستقصاء، وتبتعدت المراجع، لجمعت من غزل
الفقهاء كتاباً، فلين هذا مما يزعمون أن الفقهاء كرّهوا الشعر، وتنتزهوا
عنه؟.

أما إنها لم تفلُّ السنة علمائنا، ولم تكل أقلامهم، ولم تخفت
أصواتهم، إلا حين أضاعوا ملكة البيان، وزهدوا في الأدب، وحقرّوا
الشعر... فهل لعلمائنا عودة إلى ما هم أخلق به، وأدنى إليه، وأقدر
لو أرادوه عليه؟! مع الديانة والصيانتة وأنهم (يقولون ما لا يفعلون)
وما لا يدفع إلى ما يأباه الدين.

* * *

نطلب جميع كتبنا من:

وَالرَّازِيَةُ

لِلشَّيْخِ زَيْدِ الشَّوَّابِ

جدة: ٢١٤٣١، ص.ب: ١٢٥٠، هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢

تلكس: ٦٠٣٠٦٧، اس.جي. عمروان

بيروت: ص.ب: ١١٣/٦٥٠١، هاتف: ٣٠٢٧٠٦ - ٣١٩٨٦٢

To: www.al-mostafa.com